سلسلة العقائد

"٣"

شبهات التصوف

أبو حفص

عمر بن عبد العزيز قريشي

مدرس بكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر

دار الهدى

فيصل - الهرم - مصر

دار الهدى
نشر • توزيع
٢٣٢ شارع الملك فيصل - التعاون - الهرم ت : ٣٨٢٧٧٧٠

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣)

أما بعد

فلقد كلفت بتدريس مادة العقيدة الإسلامية على طلبة معهد الدعوة والدعاة بالجمعية الشرعية فدرست للسنة الأولى « أركان الإيمان » واخترت لها كتاب «عقيدة المؤمن » ليسريته وسهولته، وحسن عرضه، وبليغ عبارته، وحسن استدلاله، وصدق حديثه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٢ . (٢) سورة النساء الآية ١. (٣) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١

فلما أردت أن أدرس للسنة الثانية « علم التصوف» نظرت فى كتاب أقرره على الطلاب فلم أجد إلا كتابًا يمتدح التصوف ويثنى على المتصوفة، ويبالغ فى ذلك دون ما نظرة تقويم، أو كلمة تصحيح، بل معهم فى صوابهم وخطئهم، إن لم يصفهم بأعلى الدرجات وأفضل المنازل. أو كتابا يهجو الصوفية هجاءًا مرًا، وينكر التصوف برمته، ويحارب ذلك حربًا شعواء إن لم يكن يرميهم بالكفر والخروج عن الإسلام .

والحق أن هذا إفراط أو تفريط يمقته الإسلام ويرفضه، ولذلك احترت فى تقرير كتاب عليهم، ونحن نريد أن نتكلم بوسطية الإسلام وأن ننصف القوم، بأن نقول مالهم وما عليهم، دونما حياء أو خجل، فاضطررت للكتابة فى ذلك، ولو على سبيل الإيجاز – رغم مشغوليتى برسالتى، ولقد مَنَّ الله على، فقرأت كلامًا لشيخ الإسلام ابن تيمية فكان – فى هذه المسألة – ميزان الاعتدال، ووسطًا بين الأقوال، فيثبتُ لمن وافق السنة حقه من المحبة والتوقير، ويدفع ببرهان الشرع الزائغين والمبتدعين، مع الإقرار بأن حال النبى ﷺ وحال أصحابه رضى الله عنهم هو أكمل الأحوال.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على السنة، وأن يتوفانا عليها، وأن يرزقنا محبة من والاه، وعداوة وبغض من عاداه. وما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

عمر بن عبد العزيز

التمهيـــد

ويشتمـل على :

* تعريف التصوف لغة واصطلاحاً
* متى ظهر التصوف
* أول من تسمي بالصوفي
* أين ظهر التصوف
* أقسام المتصوفة
* سبب ظهور التصوف
* فرق الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أولا : - مقدمة حول : « معنى التصوف وظهوره، وفرق المتصوفة وأقسامهم »

أ - معنى كلمة صوفى

* لغة : إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع اختلفوا فى هذه الكلمة « صوفى» هل هى مشتقة من الصوف أو من الصُفَّة أو من الصفاء أو من الصف. ونحو ذلك، فاختار بعضهم أنها مشتقة من إحدى هذه الكلمات دون غيرها، بينما قال آخرون إنها تصلح أن تكون مشتقة منها جميعا، لأن لها من كل كلمة منها معنى يصح انصرافها إليه، فمن نسبها إلى الصوف لاحظ كثرة لبسهم له، ومن نسبها إلى الصفة لاحظ محاولتهم التشبه بأهل الصفة « رضى الله عنهم » ، ومن نسبها إلى الصفاء لاحظ صفاء سريرتهم، ومن نسبها إلى الصف لاحظ حرصهم على الصف الأول . . . الخ.

هذا ولكن اللغة لاتسعفنا فى تصحيح اشتقاقها من كل هذه الكلمات، فقد بين الإمام « القشيرى»، وكذلك الإمام « ابن تيمية » وغيرهم خطأ من قال باشتقاقها من أكثر هذه الكلمات. ونوضح ذلك فنقول، وبالله التوفيق :

١ - النسبة إلى الصُفَّة :

وهى الموضع الذى بنى لايواء جماعة من المسلمين بالمسجد النبوى الشريف لم يكن لهم أهل بالمدينة المنورة ولامنازل لهم بها، وقد كان عامتهم من الفقراء المهاجرين.

فرأى بعض الصوفية أن الكلمة منسوبة فى الأصل إلى هذه « الصفة» ، ولكن الإمام القشيرى يعترض على صحة هذه النسبة بقوله : «فالنسبة إلى الصفة لاتجئ على نحو صوفي» [١] ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» من قال إنه نسبة إلى الصفة قيل له كان حقه أن يقال «صُفِّية»[٢]

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧ ٢- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠ ص ٣٦٩

٢- النسبة إلى الصفاء :

والمقصود به هنا هو صفاء الروح وصفاء السريرة، فالصوفية ينسبون أنفسهم إلى الصفاء لما فيه من معان سامية رفيعة.

ولكن النسبة إلى الصفاء لاتصح من حيث اللغة، يقول الإمام القشيرى : « ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة»(١)

ويقول ابن تيمية : « ومن قال هى نسبة إلى الصفاء قيل له: كان حقه أن يقال صفائية، ولو كان مقصورا لقيل صفوية »(٢).

٣- النسبة إلى الصف :

وقد يقصدون بالصف هنا معانى كثيرة، منها الصف الأول فى الصلاة، ومنها الصف المقدم بين يدى الله عمومًا، ولكن اللغة أيضا لاتسعفنا فى إضافة كلمة«صوفى» إلى هذا الاسم، يقول الإمام القشيرى : «وقول من قال إنه مشتق من الصف، فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالى ، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لاتقتضى هذه النسبة إلى الصف »(٣).

وقال الشيخ ابن تيمية : ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله، قيل له كان حقه أن يقال «صُفِّية»(٤)

٤- النسبة إلى الصفوة :

أى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوى(٥)

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧

٢- مجموع الفتاوى جـ ١ صـ ٣٦٩

٣- الرسالة للقشيرى ص ٢١٧

٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١٠ صـ ٣٦٩

٥- الصوفية والفقراء لابن تيمية صـ ٦

٥- النسبة إلى صوفة :

وهو صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك.

ولقد تكلم شيخ الاسلام عن هذه النسبة إلى «صوفة» المذكور، فأجاز وقوعها من حيث اللغة، ولم يتعرض القشيرى لهذه النسبة، إلا أن الامام ابن تيمية بعد أن صحح هذه النسبة من حيث اللغة بالقياس على كلمة «كوفة، فإن النسبة منها «كوفي» فكذلك «صوفة» النسبة منها «صوفى» وضعف صحة هذه النسبة من حيث علاقة الصوفية بهذه القبيلة من العرب، وذلك لاستبعاد أن ينتسب بعض الزهاد من المسلمين إلى قبيلة من العرب كانت تعبد الله على جهل، بل يجزم الشيخ بأن غالب من تكلم باسم الصوفى لايعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة فى الجاهلية لاوجود لها فى الاسلام (١)

٦- النسبة إلى صوفيا :

و «صوفيا» كلمة يونانية ومعناها الحكمة وهو لم يصح لغة ولانسبا.

٧ - النسبة إلى الصوف:

وعلى الصحيح أن اشتقاق كلمة «صوفى» من «الصوف» فيقال تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص، وتبرقعت المرأة إذا لبست البرقع، ونحو هذا. فهى نسبة تصح من حيث الواقع، فقد عرف الصوفية بلبسهم الصوف وكان ذلك علامة على الزهد الذى عرفوا به.

* ومع ترجيحنا صحة هذه النسبة الا أنه لم يخل من اعتراضات، منها : -

أ - أن الصوفية ليسوا مختصين بلبس الصوف دون غيرهم. وهو رأى الإمام القشيرى (٢)

١- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٦ بتصرف ٢- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧

أى أن كافة الناس قد يلبسون الصوف فى وقت ويتركونه فى وقت، ومنهم الصوفية، فما الداعى لتخصيص الصوفية به حتى ينسبوا إليه دون غيرهم علما بأن النسبة إلى الصوف صحيحة عنده من حيث اللغة.

وقد أجاب « ابن خلدون» على هذا الاعتراض فى مقدمته، من ناحيتين :

الناحية الأولى : إنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لانجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب فى طائفة الصوفية.

الناحية الثانية : أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدًا وتورعًا عن لبس الفاخر من الثياب، أما سائر الناس من غيرهم – فيلبسونه لا لهذا الغرض الذى ينشده الصوفى، حينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرًا واضحًا[١] وهذا تحقيق جيد من العلامة ابن خلدون.

ب – الاعتراض الثاني : أن لبسهم الصوف كان تشبهًا بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وليس بالنبى محمد ﷺ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى الفتاوى[٢] عن«محمد بن سيرين» أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف «فقال : إن قومًا يتخذون الصوف يقولون:ـ إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب الينا، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلامًا نحوًا من هذا.[٣]

١– المقدمة لابن خلدون صـ ٣٣٤

٢– مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٧

٣– راجع / موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، د / أحمد بن محمد بنانى صـ٦٧ – ٧٠ بتصرف و / فى ظلال التصوف الإسلامى د / طه دسوقى صـ ٣–٩ بتصرف

معنى كلمة « صوفي » أو« تصوف »

*اصطلاحًا : وحول تعريف التصوف اصطلاحًا، نقول : لقد أصبح من المعروف لدى العلماء الذين كتبوا عن التصوف أن تعريف التصوف بعبارة واحدة جامعة مانعة إن لم يكن متعذرًا فهو متعسر جدًا، وهذا سببه كثرة ماورد من التعاريف المختلفة للتصوف على لسان كثير من كبار الصوفية، بل قد يرد عن الشخص الواحد كثير من التعاريف تتراوح بين الاختصار والإسهاب، أو بين الاقتضاب والاطناب، وتتحدث عن الوسيلة أو الغاية، وتختلف عن بعضها فى تصوير معنى التصوف.ولقد فسر الإمام القشيرى هذا الاضطراب والتعدد فى تعريف التصوف حتى عن الشخص الواحد – بأن كل واحد يتكلم بحكم الوقت والحال الذى هو فيه، فإذا تغير الوقت والحال تكلم بحكم وقته وحاله الجديد[١]

* وإليكم نماذج من تعريف الصوفية للتصوف، وقد أردفناها بتعليق عليها وملاحظات فيها :

١– قال سهل بن عبد الله التسترى (*) :« الصوفى من صفا الكدر، وامتلأ من الفِكَر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر»[٢].

وهو تعريف اشتمل على عبارات منمقة وعامة، قد لوحظ فيها موضوع الفواصل اللغوية أو السجع أكثر من أى شىء آخر، فما هو الكدر الذى صفا منه الصوفى ؟

هل هو كدر الخلق أو كدر النفس أو غير ذلك، وما هى الفكرة التى امتلأ منها فإن الفكر جمع فكرة، والفكرة قد تكون حسنة وقد تكون غير ذلك، وكيف ينقطع إلى الله من البشر ؟

هل بالانعزال التام عن الناس، أو بمعاملة الناس بما طلبه الله منه، وما يرضى الله

١– الرسالة للقشيرى صـ ٢١٧ بتصرف ٢– التعرف للكلاباذى صـ ٩

* هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ، توفى عام ٢٣٨هـ ، انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٢٠٦ .

ورسوله، وما هو مدى تأثير هذا الانقطاع على تكوين الأمة الإسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونحو ذلك.

وقوله: «استوى عنده الذهب والمدر» لايكفى لإظهار معنى التصوف، فقد يستوى الذهب وغيره عند كثير من الناس لأسباب مختلفة، منها عدم اشتغال القلب بالدنيا طلبًا فيما عند الله، ومنها أن يكون الشخص سفيهاً لايعرف الفرق بينهما من جهة النفع، ومنها غير ذلك.

٢- وقال أبو الحسن النورى (*) : (التصوف ترك كل حظ للنفس)(١).

وهذا التعريف به اختصار مخل بالمعنى المطلوب، فإن عبارته هذه عامة فى كل مايصلح أن يكون حظًا للنفس من خير أو شر فى الدنيا والآخرة، ولم يحدد المُعَرِفُ نوع الحظوظ التى يتركها الصوفى والتى لايتركها. أما إذا قصد ترك كل الحظوظ على إطلاقها فهذا لايعتبر مبدأً إسلاميًا إطلاقًا، إذ ليس من الاسلام أن يترفع المرء عن طلب رضى الله ومحبته ونحو هذا، وذلك من حظوظ النفس، إذ فيها غاية السعادة لها.

٣- وقال الجنيد بن محمد (*) : (التصوف هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة).

وقال أيضا : (التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع).

وقال كذلك : (هوتصفية القلب عن مواقف البرية، ومفارقة الأخلاط الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة ،واتباع الرسول فى الشريعة)

---

* هو أحمد بن محمد النورى ، بغدادى المنشأ . توفى عام ٢٩٥هـ ، انظرطبقات الصوفية للسلمى ص١٦٤

١- التعرف للكلاباذى صـ ٩

* هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز، توفى عام ٢٩٧هـ/ انظر طبقات الصوفية للسلمى ١٥٥ .

وأما تعريفات الجنيد هذه فلم تحدد معنى، ولم تصب هدفًا، فضلاً عن غموضها وقصورها.

فالتعريف الأول له عموم وإبهام بل هو تعريف قاصر، فإنه يتحدث عن الغاية الأخيرة للتصوف فيصور التصوف فى غايته الأخيرة.

كما نجد فى التعريف الثانى تصويرا ببعض مظاهره الحسنة التى يريد المُعَرفُ أن ينبه الصوفية إليها، لأن فيهم من لا يتمسك بها .

ولعل المراد بالذكر مع الاجتماع أن لايذكر الله تعالى وفى إدراكه شيء آخر، فهو يذكر الله ناسيًا كل شيء غيره كما يفيده مساجلات بعض الصوفية وعباراتهم.

ويريد بالوجد مع الاستماع أن يكون وجده متمشيًا مع ما جاء فى الشريعة الإسلامية، فلا يخرج فى وجده إلى منكر تنكره الشريعة، كمن يقول «أنا الله» ونحو ذلك.

ويريد بقوله «عمل مع اتباع» أن يكون عمله موافقا للشريعة، وهذه الجملة الأخيرة كالتأكيد للثانية. ومع هذا فلم نخرج من هذا التعريف بصورة متكاملة عن التصوف، يمكن أن تعتبر جدًا جامعًا مانعًا فى تعريف التصوف .

وكذلك فى تعريفه الثالث أسهب إسهابًا مملاً، واهتم بالفواصل ونحو ذلك وأكثر العبارات الغامضة التى لايخرج القارئ منها بمعنى سهل واضح كما هو المطلوب فى التعريف الجيد[1]

٤- وقال أبو محمد الجريرى (*) : (التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى)[2]

١- موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، لأحمد بنانى صـ ٧٥ و ٧٦

* هو أحمد بن محمد بن الحسينى الجريرى ، توفى عام ٣١١هـ، انظر طبقات الصوفية للسلمى ص٢٥٩

٢- اللُمَعْ لأبى نصر السراج صـ ٤٥ .

وقال أيضًا : (التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب)[١]

* وعن هذا نقول بالنسبة للتعريف الأول فيه عدم تمييز للصوفية عن غيرهم، لأن مسألة الدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى، مسألة نطالب بها كل مسلم، وليست خاصة بالصوفية، فكيف تصلح للتعريف بهم دون غيرهم.

وقوله فى التعريف الثانى (مراقبة الأحوال ولزوم الأدب) فهذا فضلا عن أنه لم يبين ما المراد بالأحوال التى يراقبها الشخص ولم يبين نوع الآداب التى يلزمها الصوفى فهو كلام عام لايعطى فكرة واضحة عن التصوف[٢]

٥- وقال محمد بن على القصاب : (التصوف أخلاق كريمة، ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام).[٣]

وهو كسابقه فى العموم أو التعميم لايعطى حدًا، ولا يلتزم بقيد.

٦- وقال معروف الكوفى : (التصوف : الأخذ بالحقائق، واليأس مما فى أيدى الخلائق)[٤]

فهذه التعريفات وأمثالها اشتملت فى صيغتها العامة على الغموض والتعبيرات الاصطلاحية، والتعريف بالغاية أكثر من أى شىء آخر[٥]

٧- ويقول ابن خلدون : (التصوف أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد فى الخلوة للعبادة) [٦]

ونرى فى هذا التعريف تصويرًا عامًا للتصوف يكاد يتناول كل خطواته مميزًا للتصوف والمتصوفين إلى حد كبير عن غيرهم . وإن كان لم يفرق بينهم وبين الزهاد والذين صدق عليهم نفس هذا الوصف الذى ذكره، وهم أقدم وجودًا من الصوفية.

١- الرسالة للقشيرى صـ ٢١٩. ٢- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٧٦

٣- فى ظلال التصوف الإسلامى د. / طه الدسوقى صـ ١٧.

٤- فى ظلال التصوف الإسلامى صـ ١٨ ٥- موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية صـ ٧٤

٦ - المقدمة لابن خلدون صـ ٣٣٣.ط دار المصحف بالقاهرة .

كما أن لنا بعض التحفظات الأخرى على التعريف، فقوله «أصله – أى التصوف – العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، هذا يتنافى مع دعوة الإسلام للعمل والسعى للكسب والضرب فى الأرض ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(١)

وإن الاسلام خفف من عبء العبادة بطول القيام بالليل كاملاً إلى أقل من ذلك بكثير، من أجل السعى على الرزق، والجهاد فى سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾(٢)

ودعوة الاسلام للعمل المصاحبة للعبادة، فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣)

وقوله فى بقية التعريف، الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . . الخ .

يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤)

ومع قول الله تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾(٥)

١– سورة الملك آية ١٥ ٢– سورة المزمل، آية ٢٠ ٣– سورة الجمعة، آية ٩ و ١٠

٤– سورة الأعراف، آية ٣٢ ٥– سورة القصص، آية ٧٧

وأما عن قوله«والانفراد فى الخلوة للعبادة» فهذا أيضًا يتضاد مع معالم الدين وشعائره ؛ فهذا الذى ينفرد فى الخلوة للعبادة، ما حظه من الجمع والجماعات، وما دوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما واجبه فى الجهاد، وما حظه فى معرفة الناس والاختلاط بهم ، وغير ذلك.

* وإن كانت هذه الملاحظات على حال المعرفين وليس على التعريف ذاته.

هذا . . وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية«رحمه الله» إلى المعنى الذى يحاول الصوفية أن يصلوا إليه فقال : (وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصدِّيق)[١]

وحيث إن الصديقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء، كما هو مأخوذ من قوله تعالى:

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٢]

فذكر الصديقين بعد النبيين مباشرة.

وشيخ الإسلام «ابن تيمية» لا يسلم للصوفية هذا الذى يريدون اثباته فى كل تعاريفهم للتصوف على إطلاقه، فإن هذه دعوى عريضة يجب التدقيق والتثبيت فيها، فيقول رحمه الله: ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى، لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه، فكان الصدِّيق من أهل هذا الطريق، كما يقال صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم[٣]

وخلاصة قول ابن تيمية أن«الصديقية» وهى الدرجة العالية التى تجئ بعد«النبوة» فى الترتيب، هذه الدرجة يطلبها الصوفية كما يطلبها بقية أفراد المجتمع المسلم من علماء أو صناع أو أمراء ونحوهم كل بما اختص به من طريق يطلب به مرضاة الله. ولا

١- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ٦.
٢- سورة النساء ، آية ٦٩
٣- مجموع الفتاوى جـ ١١ صـ ١٧

يصح أن يعتبر الصوفى هو الصديق مطلقًا، كما لا يصح أن يقتصر الوصول إلى درجة الصديقية على سلوك طريق التصوف وحده، وهذا يعنى أن للتصوف معنى محددًا فى ذهن الشيخ وإن كان لم يشرحه فى عبارة واضحة محددة.

* ونحن مع شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ذهب إليه، ونرفض معه تلك التعاريف التى تصل بالصوفى إلى درجة «الصدِّيق» أو أنها تمدحه وتثنى عليه وتزكيه، مع أن الله عز وجل يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٢) فكيف يجوز للصوفية تزكية أنفسهم ؟ !

ولماذا يرتضى الصوفية هذا الاسم ؟ ينتسبون إليه ويرفضون غيره، ويتركون خير تسمية لهذا الدين﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (٣)

واختيار خليل الرحمن «إبراهيم عليه السلام» ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (٤)

إن الانسان العاقل لا يرضى بغير هذا الاسم بديلا، فلا ينتسب إلا إليه، ولا يندرج إلا تحته، وكل راية دونه.

كما نقول : لماذا التعصب لاسم التصوف مع أنه لا يعدو إلا أن يكون واحدا من اثنين. إما إسلام، أو غير إسلام، فإن كان إسلاما فلماذا نسميه بالتصوف ؟

وإن كان غير الإسلام فلماذا ينسب إلى الإسلام باسم التصوف الإسلامى ؟

وإن كانت الحقيقة تقول : إن الإسلام شىء ، والتصوف شىء آخر، شأنه فى ذلك شأن الإسلام يختلف عن شأن المسلمين، وهذا ما نريد أن نوضحه فى هذا البحث.

١- سورة النجم ، آية ٣٢

٢- سورة النساء، آية ٤٩

٣- سورة فصلت ، آية ٣٣

٤- سورة الحج ، آية ٧٨

كما قال الشيخ أبو بكر الجزائرى : « إن التصوف إما أن يكون هو الإسلام أو يكون غيره ، فإن كان غيره فلا حاجة لنا به،وإن كان هو الإسلام فحسبنا الإسلام، فإنه الذى تعبدنا الله به».

ب - متى ظهر التصوف ؟

* إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع اختلفوا فى العصر الذى ظهر فيه هذا الاسم، هل كان فى الجاهلية قبل الإسلام، ثم تجدد ظهوره فى عصر الإسلام ؟ أو أن هذا الاسم لم يظهر فى عهد الإسلام ؟

ويمكن توضيح ذلك فى استعراض موقف فريقين من العلماء

الفريق الأول :

إن الفريق الأول وعلى رأسهم« أبو الفرج بن الجوزى» يؤيد الرواية القائلة بأن رجلاً فى الجاهلية كان يدُعَى« الغوث بن مر» نذرت أمه - حيث لم يكن قد عاش لها ولد - أن تعلق برأسه صوفة، أو تجعله ربيط الكعبة، ففعلت، فقيل له صوفة، ولولده من بعده (١)

وفى رواية أخرى : أن أم هذا الرجل كانت لاتلد الذكور، فقالت : لله على إن ولدت غلاما لأعبدنه البيت، فلما ولدته ربطته عند البيت فأصابه الحر، فمرت عليه وقد سقط واسترخى، فقالت : (ما صار ابنى إلا صوفة) فسمى صوفة. (٢)

ويعتبر الامام ابن الجوزى أن فى هاتين الروايتين دليلاً كافيًا على أن أصل مولد الكلمة كان قبل الاسلام عند عرب الجاهلية، وأن من تعلق بالزهد من المسلمين فيما بعد وانقطع للعبادة، فقد انتسب إلى صوفة هذا.

* ويمكن أن نناقش الإمام ابن الجوزى فى دعواه هذه ونردها من عدة وجوه : -

الوجه الأول :

١- تلبيس إبليس لابن الجوزى صـ ١٨١ ٢- نفس المصدر

أن هذه القبيلة من العرب غير مشهورة ولا معروفة عند أكثر النساك، كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية وقد نوهنا عنه، بل إن غالب من تكلم باسم التصوف لايرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة فى الجاهلية لاوجود لها فى الإسلام، كما قرر ذلك الشيخ، وهو محق فيه.

الوجه الثاني :

أن كلا الروايتين إنما تثبتان – إن صحتا – أن امرأة علقت فى رقبة طفلها علامة وهى قطعة من الصوف، أو شبهت ابنها بالصوف لما رأته منهوك القوى غير متماسك، ولذلك سمى«صوفة» ولا دخل لهذا فى ظهور فئة فى الاسلام تسمى«بالصوفية» إذ لم تدل على وجود كلمة«صوفية» ولا كلمة«صوفى» بهذه الصيغة ولا بهذا المعنى قبل الإسلام.

الوجه الثالث :

لايعقل أن يكون المسلمون قد استمدوا مبادىء تصوفهم من عرب الجاهلية الذين كانوا يتخبطون فى ظلمات الجهل، ولا أن يكونوا قد اختاروا شعار الجاهلية أو أسماء الجاهلية، وفضلوها على ماسماهم الله به من طيب الأسماء.

الفريق الثاني :

أن هذا الاسم حدث فى عصر الإسلام، ولكن أفراد هذا الفريق اختلفوا فى فترة ظهوره فى الإسلام على قولين :

القول الأول : يزعم أصحاب هذا القول أن هذا الاسم وجد فى القرن الأول من هجرة المصطفى ﷺ وعلى رأس هؤلاء«أبو نصر السراج» صاحب كتاب«اللمع» فى التصوف، وقد حاول أن يستدل على ذلك بمشهدين أوردهما فى كتابه المذكور

المشهد الأول : أن الحسن البصرى « رحمه الله» رأى صوفيًا فى الطواف فعرض عليه شيئًا من المال فلم يأخذه [1].

---

١ – اللمع للسراج صـ ٤٢

وكأن « السراج» يريد أن يقول إن ورود هذه الرواية عن « الحسن البصرى» رحمه الله، وهو من مواليد عام ٢٠ للهجرة، يدل على وجود التصوف فى عهد مبكر فى الإسلام.

ويرد على هذه الرواية بأن«الحسن البصرى» رحمه الله – وإن كان قد ولد عام ٢٠ إلا أنه عاش حتى عام ١١٠ هجرية [١] أى أنه عاش عشرة أعوام فى بداية القرن الثانى الهجرى، وليس فى أولها ولا مرجح لأحد الاحتمالين على الآخر.

المشهد الثانى : أن«سفيان الثورى» قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء»[٢].

ولم يبين الإمام « أبو نصر السراج» وجه الدلالة فى هذه الرواية على أن التصوف وجد فى عهد مبكر فى الإسلام، بل هى دليل على خلاف مراده، فإن « سفيان الثورى رحمه الله» ولد سنة (٩٧) هجرية[٣]

وهذا يدل على أن التقاءه بأبى هاشم الصوفى لايمكن أن يكون فى القرن الأول، إطلاقًا . علمًا بأن أبا هاشم الصوفى توفى عام (١٥٠) هجرية [٤] فلا بد أن لقاءهما كان فى أثناء المائة الثانية للهجرة إن صحت هذه الرواية أو تلك بذلك.

القول الثاني :

قالوا : بأن اسم التصوف ظهر فى عصر الإسلام فى بداية القرن الثانى الهجرى، وقد ذكر هذا الإمام شيخ الإسلام«ابن تيمية» رحمه الله، وكثير من العلماء، فقال ابن تيمية : «فى أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك – أى عن الزهد بلفظ«الصوفى» لأن لبس الصوف كثر فى الزهاد»[٥]

١– جمهرة الأولياء جـ ٢ صـ ٨١ – ٨٥ ط الحلبى (ترجمة الحسن البصرى).

٢– اللمع صـ ٤٢.

٣ و٤– جمهرة الأولياء جـ ٢ صـ ١١٥– قال : وتوفى أبو سفيان الثورى سنة ١٦١هـ بالبصرة.

٥– مجموع الفتاوى لابن تيمية جـ ١١ صـ ٢٩.

ولقد عبر كُتَّاب التراجم للصوفية عن تبنيهم لهذا الرأى تعبيراً عملياً، فقد اعتبروا الطبقة الأولى من طبقات الصوفية هى طبقة«الفضيل بن عياض»، و«ذى النون المصرى» و « إبراهيم بن أدهم» و«شقيق البلخى» ونحو هؤلاء ممن كانت وفاتهم فى أثناء القرن الثانى وما بعده(١)

ومما ظهر يتبين لنا أن أكثر الآراء قوة وأعظمها أنصاراً هو القول الثانى للفريق الثانى، الذين قالوا إن ظهور كلمة«تصوف» فى أثناء المائة الثانية للهجرة.

*** أول من تسمى بالصوفي (عند المسلمين) :**

عرفنا أن ظهور كلمة (صوفى) كان فى أثناء المائة الثانية للهجرة، ولكن لم نعرف على من ظهرت هذه الكلمة فى البداية.

لقد دار البحث هنا حول ثلاثة أشخاص كلهم عاش فى نفس هذه الفترة الزمنية وهم :«جابر بن حيان، وأبو هاشم الصوفى، وعبدك الصوفى »

١ – جابر بن حيان :

هو أبو موسى جابر بن حيان الكوفى، تلميذ الإمام جعفر الصادق، وقيل إنه مولى له وتتلمذ على يديه، فاشتهر بمعرفة علم الكمياء والطلسمات، وروى أن له كتاب فى البحث فى صنعة الطلسمات. وقد ادعى الشيعة أن جابرا هذا كان شيعيًا لصلته بالإمام جعفر وتتلمذه عليه»(٢)

والغريب فى الأمر أن جابراً هذا لم يرد عنه أنه كان صاحب مجاهدة أو خوف ولانطق بأقوال زهدية ولكن المروى عنه أنه كان مشتغلاً بالكمياء، ولم يكن زاهداً بالمعنى الذى تعورف عليه بمافيه من ترك الدنيا والإعراض عن المادة وعدم الانشغال بها، فقد كان خلافًا لما اشتهر عنه من اشتغال بالمادة بل ونبوغه فى هذا المجال أكثر من أى شىء آخر : ولذلك فتسميته بذلك بعيد ومرفوض.

١– طبقات الصوفية للسلمى وطبقات الأولياء لابن الملقن.
٢– الصلة بين التصوف والتشيع ، كامل الشيبى جـ٢ص٢٨٨وص٢٨٦.